حروف المعاني وتوجيهاتها الدلالية في القرآن الكريم

الطالب: طه الأمين بودانة
تخصص: علوم اللغة
Amineboudana1988@gmail.com
إشراف: أ.د/ سليمان بن علي
جامعة عمار ثليجي- الأغواط (الجزائر)

الملخص:
نسعى من خلال هذا البحث إلى اكتشاف المعاني الرئيسية والفرعية التي تؤديها حروف المعاني المختلفة من خلال النص القرآني، وستقتضي منا هذه الدراسة أن نبدأ أولا بتعريف الحرف لغة واصطلاحا، وبيان أقسام الحروف في العربية، ثم تحديد خصائص حروف المعاني، بالإضافة إلى تبيين أنواعها. ثم نلج إلى النص القرآني كي نوجه حروف المعاني التوجيه الدلالي المناسب الذي يرتضيه السياق الواردة فيه، مستفيدين في ذلك من توجيهات العلماء من لغويين ومفسرين وفقهاء وأصوليين، والأكيد أن هذه الدراسة لن تكون إحصائية تستقصي جميع أنواع حروف المعاني التي وردت في القرآن الكريم، بل ستقتصر على الحروف الأشهر والأكثر استعمالا من كل طائفة من حروف المعاني.

الكلمات المفتاحية: حروف؛ المعاني؛ الدلالية؛ القرآن؛ الكريم.

Abstract:
We seek through this research to discover the main and sub-meanings of the different meanings of the letters through the Qur'anic text. This study will require us first to define the letter, and to define the characteristics of the letters of the meanings in addition to specifying their types. Then we reach the Qur'anic text in order to direct the letters of meanings to the appropriate semantic guidance which is relevant to the context contained in it, taking advantage of the directives of scientists linguists, interpreters, jurists and fundamentalists. It is certain that this study will not be a statistical; study of all types of meanings given in the Holy Quran, On the most common and used letters of each of the letters.

Keywords: letters; meanings; semantics; Holy; Quran.

مقدمة:

لم يزل موضوع حروف المعاني يستقطب اهتمام اللغويين والمفسرين والفقهاء والأصوليين على حدٍّ سواء؛ لما لها من أثر بالغ في توجيه معاني الكلام، هذا بالإضافة إلى الدور الكبير الذي تؤديه في تعليق الكلم بعضه ببعض سواء بما تتضمنه من معان فيها، أو بعملها الذي يحدد الوظائف النحوية لتلك الكلم، يقول بدر الدين المرادي (ت: 749هـ):« فإنه لما كانت مقاصد كلام العرب، على اختلاف صنوفه، مبنياً أكثرُها على معاني حروفه، صُرفت الهمم إلى تحصيلها، ومعرفة جملتها وتفصيلها. وهي مع قلتها، وتيسُّر الوقوف على جملتها، قد كثر دورها، وبَعُد غورها، فعزّت على الأذهان معانيها، وأبت الإذعان إلا لمن يعانيها»،[1] لأجل هذا كله؛ رأينا أن نفرد لهذا الموضوع بحثا

خاصا، نجيب فيه عن بعض التساؤلات والإشكالات التي كثيرا ما تشغل أذهان الباحثين في مجال اللغة العربية، ومن أهمها:

– ما هو الحرف لغة واصطلاحا؟ وما أقسام الحروف في العربية؟ وما هي خصائص حروف المعاني؟ وما هي أنواعها؟

– وهل للحرف الواحد منها معنى واحد أم معانٍ متعددة؟ وكيف نفهم معانيها المختلفة من خلال القرآن الكريم؟ وما هو الفيصل في توجيه معانيها في القرآن الكريم؟ وهل يمكن أن تتناوب فيما بينها لتأدية معانيها؟

هذه التساؤلات وغيرها سنحاول الإجابة عنها من خلال هذا البحث.

1– تعريف الحرف:

أ– لغة: يعرفه ابن منظور (ت 711هـ) في لسان العرب تعريفا مفصلا؛ حيث يقول:« والحَرْفُ فِي الأَصل: الطَّرَفُ والجانِبُ، وَبِهِ سُمِّيَ الحَرْفُ مِنْ حُرُوفِ الهِجاء...، وحَرْفا الرأْس: شِقاه. وَحَرْفُ السَّفِينَةِ وَالْجَبَلِ: جَانِبُهُمَا، وَالْجَمْعُ أَحْرُفٌ وحُرُوفٌ وحِرَفَةٌ...، والحَرْفُ مِنَ الإِبل: النَّجِيبة الماضِيةُ الَّتِي أَنْضَتها الأَسفار، شُبِّهَتْ بِحَرْفِ السَّيْفِ فِي مَضَائِهَا وَنَجَائِهَا ودِقَّتها، وَقِيلَ: هِيَ الضّامِرةُ الصُّلْبَةُ، شُبِّهَتْ بِحَرْفِ الْجَبَلِ فِي شِدَّتها وصَلابتها، وَقَالَ ابْنُ سِيدَهْ: "فُلَانٌ عَلَى حَرْف مِنْ أَمره"؛ أَي نَاحِيَةٍ مِنْهُ، إِذَا رأَى شَيْئًا لَا يُعْجِبُهُ عَدَلَ عَنْهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ﴾؛ أَي إِذَا لَمْ يرَ مَا يُحِبُّ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ، قِيلَ: "هُوَ أَن يَعْبُدَهُ عَلَى السرَّاء دُونَ الضرَّاء"، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: "عَلَى حَرْف"؛ أَي: "عَلَى شَكّ"...، وتَحْرِيفُ الكَلِم عَنْ مواضِعِه: تَغْيِيرُهُ. وَالتَّحْرِيفُ فِي الْقُرْآنِ وَالْكَلِمَةِ: تَغْيِيرُ الحرفِ عَنْ مَعْنَاهُ وَالْكَلِمَةُ عَنْ مَعْنَاهَا؛ وَهِيَ قَرِيبَةُ الشَّبَهِ، كَمَا كَانَتِ الْيَهُودُ تُغَيِّرُ مَعانِيَ التَّوْرَاةِ بالأَشباه، فوصَفَهم اللَّهُ بِفِعْلِهِمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى:﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ﴾، وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ أَبي هُرَيْرَةَ: {آمَنْتُ بمُحَرِّفِ الْقُلُوبِ}؛ هُوَ المزِيلُ: أَي مُمِيلُها ومُزيغُها، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: المحَرِّكُ. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: {لَا يأْتون النِّسَاءَ إِلَّا عَلَى حَرْفٍ}؛ أي: على جنب». ويقول أيضا: « الحَرْفُ مِنْ حُروف الهِجاء مَعْرُوفٌ؛ وَاحِدُ حُرُوفِ التَّهَجِّي. والحَرْفُ: الأَداة الَّتِي تُسَمَّى الرابِطةَ؛ لأَنها تَرْبُطُ الاسمَ بِالِاسْمِ والفعلَ بِالْفِعْلِ؛ كَعَنْ وَعَلَى وَنَحْوِهِمَا...، وقال ابْنُ سِيدَهْ: "والحَرْفُ: القِراءة الَّتِي تُقرأُ عَلَى أَوجُه، وَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: { نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُف كلُّها شافٍ كافٍ}؛ أَراد بالحرْفِ اللُّغَةَ"».[2]

فالحرف يُطلق في اللغة على عدة معان؛ أهمها:

* أصل معنى الحرف هو: الطرف والجانب والناحية.

* الحرف من الرأس: شِقُّه، ومن السفينة: جانبها، ومن الجبل: أعلاه المحدَّد، ومن الإبل: النجيبة الماضية التي أضنتها الأسفار.

* من معاني الحرف أيضا: الجهة، الشك، الزيغ، الميل، والعدول عن جادة الصواب.

* أما الفعل من هذا الأصل الثلاثي "ح ر ف" فتتعدد معانيه أيضا؛ فحَرَفَ عن الشيء يَحْرِف حَرْفا وانحرف وتحرّف واحرورف: عدل عنه، وحَرَف لعياله: كسب، وحرَف الشيءَ عن وجهه: صرفه، وحرَف عينه حَرْفةً: كحلها، وأحرف ناقته: أهزلها.[3]

* وأما المصدر منه: "التحريف"؛ فهو التبديل والتغيير.

وقد يُستعمل الحرف أيضا كمصطلح علمي، ويُقصد به:

أ- أحد حروف الهجاء.

ب- اللغة والقراءة.

ج- الأداة التي تُسمى الرابطة؛ لأنها تربط الاسم بالاسم، والفعل بالفعل.

ب- اصطلاحا: يعرفه أبو القاسم الزجاجي (ت339هـ) بقوله: « الحرف: ما دل على معنى في غيره؛ نحو: "مِن، إلى، ثُم،" وما أشبه ذلك؛ وشرحه: أنّ "مِن" تدخل في الكلام للتبعيض، فهي تدل على تبعيض غيرها، لا على تبعيض نفسها، وكذلك إذا كانت لابتداء الغاية: كانت غاية غيرها، وكذلك سائر وجوهها، وكذلك "إلى" تدل على المنتهى؛ فهي تدل على منتهى غيرها لا على منتهاها نفسها، وكذلك سائر حروف المعاني».[4] أما الفاكهي (ت353هـ) فيعرّفه في كتابه "شرح الحدود النحوية" بأنه: « كلمة دلت على معنى، ويدخل مع المحدود قسيماه، والقسيمان: هما الاسم والفعل، ثم خرج الفعل وبعض الأسماء بقولهم: "في غيرها"؛ أي بسبب انضمام غيرها إليها؛ من اسم ك "مررت بزيد"، أو فعل: ك "قد قام"، أو جملة، كحروف النفي والاستفهام والشرط؛ فالحرف مشروط في دلالته على معناه الذي وُضع له ذكرُ متعلقه، وإن لم يُذكر متعلقه فلا دلالة له على شيء...».[5]

أما النحاة المحدثون فإنهم لم يضيفوا شيئا يُذكر لما قاله القدامى عن الحرف؛ يقول عباس حسن: « الحرف كلمة لا تدل على معنى في نفسها، وإنما تدل على معنى في غيرها – بعد وضعها في الجملة – دلالة خالية من الزمن»،[6] ويقول مصطفى الغلاييني: « وحرف المعنى: ما كان له معنى لا يظهر إلا إذا انتضم في الجملة؛ كحروف الجر، والاستفهام، والعطف، وغيرها».[7]

ج- التعريف المقترح للحرف: ينبغي للتعريف الاصطلاحي للحرف أن يستوفي شروطا هي:

1- أن يكون التعريف جامعا مانعا.

2- أن يكون التعريف دالا على ذات الحرف، لا على العلة التي وُضع لأجلها.

3- تجنب مواطن تداخل الحرف مع غيره من أقسام الكلم.

وعليه نقترح أن يكون التعريف الاصطلاحي للحرف أنه: "كلمة لا محل لها من الإعراب، لها معنى عام في نفسها في حالة الإفراد، يتحدد ويتوضح ويكتمل هذا المعنى في حالة التركيب؛ أي عند انتظامها في الجملة".

2- أقسام الحروف في العربية:

تنقسم الحروف في العربية ثلاثة أقسام هي:

أ- حروف التهجي: ويسميها بعض العلماء الحروف المعجمية، وهي الأصل في كل الكلمات؛ فمنها تتكون كل الكلمات العربية، وهي أصوات أحادية منعزلة لا تدل على معنى، وتُسرد سردا: أ، ب، ت، ث،...الخ

ب- الحروف التي هي أبعاض الكلمات: وهي حروفُ معانٍ صرفية؛ فهي تدل على معنى في الكلمة ذاتها دون سائر الكلام؛ كحروف المضارعة، وياء النسب، وتاء التأنيث، ونحوها.

ج- حروف المعاني: وهي التي تقترن بالأسماء والأفعال لمعان تدل عليها؛ مثل: "مِن، ولم، و ثُم"، ونحوها، وهي موضوع دراستنا. يقول الزجاجي (ت339هـ): « الحروف ثلاثة أضرب؛ حروف المعجم التي هي مدار الألسن عربيها وعجميها، وحروف الأسماء والأفعال، والحروف التي هي أبعاضها؛ نحو: "العين" من جعفر و" الضاد" من "ضرب"، و ما أشبه ذلك».[8] وبعض العلماء يختصر هذا التقسيم؛ فيجعل حروف العربية قسمين هما: أ- حروف المباني: وهي الحروف التي يتكون منها الكلام، وتضم حروف التهجي و الحروف التي هي أبعاض الكلمات.

ب- حروف المعاني: وقد سبق تعريفها.

3- خصائص حروف المعاني:

تتميز حروف المعاني عن قسيميها الاسم والفعل بمميزات منها:

- أنها مبنية كلها بخلاف الأسماء والأفعال فإنّ منها المبني ومنها المعرب؛ لأنها لا تحتاج في دلالتها على معانيها إلى إعراب؛ ففي قولنا مثلا: " زيدٌ في الدارِ"، يُستفاد معنى الظرفية من لفظ "في" في حد ذاته دون حاجة إلى الإعراب.

- أنه لا يُخبر عنها و لا تكون خبرا بخلاف الاسم فإنه يُخبر عنه، والفعل فإنه يكون خبرا.

- أنه لا يتألف من الحرف مع مثله كلام، ولا مع الاسم وحده أو مع الفعل وحده كلام، بخلاف الاسم فإنه يتألف منه مع مثله كلام؛ نحو قولنا: " زيد شجاع"، ومنه مع الفعل كلام؛ ؛ نحو قولنا: " زيد ينطلق"، وبخلاف الفعل؛ فإنه يتألف منه مع الاسم كلام؛ نحو قولنا: " جاء زيد".

- أنها لا تتصرف، ولا يُشتق منها، ولا تُثنّى، ولا تُجمع.[9]

4- أنواع حروف المعاني ومعايير تصنيفها:

تُقسَّم حروف المعاني عدة أقسام حسب معايير مختلفة؛ وأهم المعايير التي ارتضاها علماء العربية في تصنيفهم لحروف المعاني يمكن إجمالها فيما يلي:

أ- تقسيمها حسب عدد الحروف: تُقسم حروف المعاني حسب هذا المعيار قسمين هما:

1- الحروف المفردة وهي: الهمزة، الباء، التاء، السين، الفاء، الكاف، اللام، النون، الواو، الهاء، والياء.

2- الحروف المركبة وهي: أل، أم، إنْ، أنْ، إنّ، أنّ، أو، أيْ، إي، بل، ها، عن، في، قد، كي، لا، لم، لن، لو، ما، مذ، مَن، هل، وا، وي، يا، أجل، إلى، إذن، إذا، ألا، أما، أيا، بجل، بلى، ثم، جير، خلا، رب، سوف، على، ليت، منذ، نعم، هيا، عدا، لات، علَّ، إلا، حتى، حاشا، ألا، أمّا، إما، أيّا، كأنّ، كلاّ، لعل، لكنْ، لما، لولا، أيمُن، لوما، هلاّ، لكنّ.

ب- تقسيمها حسب لزوميتها للحرفية من عدمه: تُقسم حروف المعاني حسب هذا المعيار ثلاثة أقسام هي:

1- الحروف اللازمة للحرفية: وهي الحروف التي لا تكون إلا حروفا فقط؛ وهي: تاء القسم، الهمزة، الباء، التاء، السين، الفاء، الكاف، اللام، النون، الواو، الهاء، والياء، أم، إنْ، أو، أيْ، إي، بل، عن، في، كي، لا، لم، لن، لو، هل، يا، أجل، إلى، إذن، ألا، أما ، أيا، بجل، بلى، ثم، جير، رب، سوف، على، ليت، نعم، لات، علَّ، إلا، حتى، ألا، أمّا، إما، أيّا، كأنّ، كلاّ، لعل، لكنْ، لما، لولا، لوما، هلاّ، لكنّ.

2- الحروف الكائنة حرفا واسما: وهي الحروف التي تكون حرفا حينا، وتكون اسما في بعض المواضع؛ وهي: مذ، منذ، أيمُن، ما، مَن، قد، أنْ، ها، أل، إذا.

3- الحروف الكائنة حرفا وفعلا: وهي الحروف التي تكون حرفا حينا، وتكون فعلا في بعض المواضع؛ وهي: حاشا، عدا، خلا، وا، وي، هيا.

ج- تقسيمها حسب الاختصاص: تُقسم حروف المعاني حسب هذا المعيار أربعة أقسام هي:

1- الحروف المختصة بالاسم: وهي الحروف التي تدخل على الاسم فتكون كالجزء منه، فلا تعمل فيه غالبا؛ ك"ال" التعريف، أو لا تتنزل منزلة الجزء منه فتعمل فيه؛ كحروف الجر، وهذه الحروف جملةً هي: الألف، الباء، الكاف، أي، عن، في، مِن، مَن، مُذ، وا، وي، يا، خلا، عدا، رُبّ، علا، ليت، لات، منذ، أيا، إلى، هيا، إنَّ، أنَّ، إلا، إمّا، أمّا، حاشا، أيمُن، كأنّ، لعل، لكنْ، لولا، لكنّ.

2- الحروف المختصة بالفعل: وهي الحروف التي تدخل على الفعل دون غيره، سواء عملت فيه كحروف الجزم، أو لم تعمل كحرف التنفيس؛ وهذه الحروف هي: السين، سوف، قد، لم ، لن، إذًا، إذما، ألاّ، لما، هلاّ.

3- الحروف المشتركة: وهي الحروف التي تدخل على الاسم والفعل على حدّ سواء؛ وهي: الهمزة، التاء، الفاء، اللام، الواو، الياء، النون، أل، أنْ، إنْ، بل، كي، لو، لا، ما، هل، ها، ثُم، ألا، أما، حتى، لوما، أم، أو، الهاء.

4- الأحرف المستقلة: وهي أحرف ليست مختصة بالأسماء، ولا بالأفعال، ولا هي مشتركة بينهما، بل هي أحرف قائمة بذاتها تقوم مقام الجملة، وهي أحرف الجواب والتصديق: نعم، أجل، بجل، بلى، جير، لا؛ ففي قول السائل مثلا: "هل انتهيت من البحث؟"، يجيب المجيب بقوله: "نعم"؛ ف"نعم": حرف قائم بذاته يقوم مقام الجملة.[10]

د- تقسيمها حسب البناء: تُقسَّم حروف المعاني حسب ما تُبنى عليه كما يلي:

1- الحروف المبنية على السكون؛ وهي: الألف، أل، أم، إنْ، أنْ، أو، أيْ، إي، بل، ها، عن، في، قد، كي، لا، لم، لن، لو، ما، مذ، مَن، هل، وا، وي، يا، أجل، إلى، إذن، ألا، أما ،أيا، بجل، بلى ، جير، خلا، على، نعم، هيا، عدا، إلا، حتى، حاشا، ألاّ، أمّا، إمّا، أيّا، كلاّ، لما، لولا، أيمُن، لوما، هلاّ، لكن، تاء التأنيث، الواو، الهاء، والياء.

2- الحروف المبنية على الفتحة؛ وهي: السين، الهمزة، تاء القسم، الفاء، الكاف، اللام، النون، ثُم، رب، سوف، ليت، لات، إنَّ، أنَّ، كأنّ، لعل، لكنَّ.

3- الحروف المبنية على الكسرة؛ وهي: الباء، واللام (إذا كانا حرفا جر).

4- الحروف المبنية على الضمة؛ وهي: الميم، منذ.

هـ- تقسيمها حسب الإعمال والإهمال: تنقسم حروف المعاني من حيث العمل النحوي ثلاثة أقسام هي:

1- الحروف العاملة فقط: وهي الحروف المختصة بالدخول على الأسماء أو الأفعال، ولأجل هذا الاختصاص فإنها تؤثر نحويا فيما تدخل عليه فتعمل فيه، يقول ابن الأنباري (ت: 577هـ): « فالمعمَل هو الحرف المختص؛ كحرف الجر وحروف الجزم ونحوها»؛[11] وهذه الحروف هي: الباء، كي، لم، لن، مِن، مَن، ما، عدا، رُب، على، ليت، متى، منذ، إنَّ، أنَّ، إذما، أيمُن، حاشا، كأنّ، لعلّ، لما، لكنّ.

2- الحروف المهملة فقط: وهي الحروف المشتركة التي تدخل على الاسم والفعل على حدّ سواء؛ وهي: الهمزة، الألف، السين، الفاء، الياء، النون، أل، أم، أو، أيْ، إي، بل، قد، هل، ها، وا، وي، يا، نعم، أجل، بجل، بلى، جير، ثُم، سوف، هيا، أما، أيا، ألاّ، أمّا، كلاّ، لكنْ، لوما، هلاّ.

3- الحروف العاملة المهملة: وهذه الحروف تكون عاملة في سياقات معينة، ومهملة في سياقات أخرى؛ وهي: التاء، الكاف، اللام، الميم، الواو، إنْ، أنْ، عن، لو، لا، مذ، ما، لات، ألا، إلاّ، حتى، لما، لولا.

5- التوجيهات الدلالية لحروف المعاني في القرآن الكريم:

نظرا لسعة هذا الموضوع وتشعبه؛ فإننا سنقتصر على دراسة الحروف الأشهر والأكثر استعمالا من كل طائفة من حروف المعاني؛ وهي:

1- حروف الجر:

"إلى": معناه انتهاء الغاية، يقول المبرد (ت: 285هـ) في المقتضب: « وأما "إلى" فإنما هي للمنتهى؛ ألا ترى أنك تقول: "ذهبت إلى زيد"، و"سرت إلى عبد الله"، و"وكلتك إلى الله"»،[12] والأكثر عدم دخول ما بعدها فيما قبلها فيما دلت عليه القرائن، كقوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[البقرة: 187]؛ فالليل لا يدخل في الصيام، وإن دلت القرينة على دخول ما بعدها فيما قبلها جاز ذلك، كقولنا: "صمتُ رمضان من أوله إلى آخره"؛ فإن آخر رمضان داخل في أوله. ومن المعاني التي ذكرها النحاة ل"إلى" معنى المعية، مثل ما جاء في قوله تعالى:﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[الصف: 14]، ويرى فاضل السامرائي أن هذا المعنى يرجع في حقيقته إلى معنى الانتهاء؛ أي: "من يُضيف نصرته إيايا إلى نصرة الله تعالى،" وهي بهذا قريبة المعنى من "مع"، غير أنها تختلف عنها؛ فقولنا مثلا:"من ينصرني مع خالد؟" قد يُراد به من يضيف نصرته إلى نصرة خالد؛ أي: أن يتصاحبا في نصرتي، أو:"من ينصرني وينصر خالدا؟"، أما قولنا: "من ينصرني إلى خالد؟" فمعناه: "من يضيف نصرته إياي إلى نصرة خالد؟".[13] وتأتي "إلى" قريبة من معنى "في"؛ كما في قول الشاعر:

فلا تتركني بالوعيد كأنني ** إلى الناس مطليٌّ به القار أجربُ

فهي لا تطابقها تماما في المعنى، بل هي قريبة منها؛ فقولنا مثلا: "هو إليهم شمس" يختلف عن قولنا:" هو فيهم شمس"؛ ففي المثال الثاني: هو بينهم كالشمس وليس فيه ما يدل أنهم معجبون به، أما المثال الأول فمعناه: أنه يبدو لهم كالشمس أي يرونه جميلا، ففيه ما يدل على إعجابهم به. وقيل: إنّ "إلى" تأتي بمعنى "مِن"؛ كقول الشاعر:

تقول وقد عاليتُ بالكور فوقها ** أيُسقى فلا يُروى إليَّ ابنُ أحمرا

قيل: إن المعنى هو: "فلا يُروى مني"، وقيل بل هو: "فلا يُروى ظمؤه إليّ "؛ أي: يبقى ظامئا إليها فلا يُروى"، ومثال هذا قولنا: "هو لا يشبع من العلم"؛ أي أن العلم لا يُشبع حاجته، وأنه كلما تعلم ازداد ظمأ وطلبا للعلم. أما قولنا: "هو لا يشبع إلى العلم"؛ فمعناه أنه لهِفٌ إلى العلم متشوّق إليه لا ينقطع ظمؤه إليه ولا شوقه له، فالمعنى الثاني إذن أدق وأولى في هذا المقام من المعنى الأول، ودلالة "إلى" تختلف عن دلالة "مِن" وإن اقتربت منها.[14]

ويُلاحظ أن المعاني المذكورة لهذا الحرف كلها تدور في فلك واحد؛ وهو "انتهاء الغاية"، وعلى هذا يمكننا تقسيم معاني هذا الحرف إلى معنى رئيسي أصلي وهو انتهاء الغاية، ومعانٍ ثانوية وهي سائر المعاني الأخرى التي ذكرها النحاة لهذا الحرف.

"الباء": معنى الباء الرئيسي هو الإلصاق؛ يقول سيبويه (ت: 180هـ):« وباء الجر إنما هي للإلصاق والاختلاط؛ وذلك قولك: "خرجت بزيدٍ، ودخلت به، وضربته بالسوط": ألصقت ضربك إياه بالسوط. فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله»،[15] وقيل: لا يفارقها هذا المعنى. والإلصاق حقيقي ومجازي؛ فمن الإلصاق الحقيقي قولنا: "أمسكت بالقلم"، ومن الإلصاق المجازي قولنا: "علمتُ به"، ومن التوسع في الإلصاق قولنا: "مررتُ به"؛ أي ألصقت مروري بمكان يقرب منه، كقوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾[المطففين: 30]؛ أي قريبا منهم.

ومن معانيها "الاستعانة"؛ نحو قوله تعالى:﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[البقرة: 45]، ونحو قولنا:" أكلت بالملعقة"، ومنها "المصاحبة"؛كقوله تعالى:﴿ وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾[المائدة: 61]، وقوله تعالى:﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾[هود: 48]، وقيل: قد تأتي للتعدية أيضا؛ نحو قولنا: "ذهبتُ به"، و"خرجت به"، وهناك فرق بين تعدية الفعل بالباء وتعديته بالهمزة؛ فإذا عُدي بالباء فمعناه: الأخذ والاصطحاب ؛كقوله تعالى:﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾[يوسف: 15]، وأما الإذهاب فهو الإزالة، وفي قولنا مثلا: "أدخل عمرو زيدا القسمَ"، جاز أن يكون قد دخل معه وجاز أنه لم يدخل معه، أما قولنا: "دخل به" فلا يحتمل إلا معنى المصاحبة؛ أي أنه دخل معه.[16] وتكون كذلك للظرفية؛ كما في قوله تعالى:﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[طه: 12]، وقوله تعالى:﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[البلد: 1- 2]، وتأتي بمعنى المقابلة والعوض؛ كما في قوله تعالى:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾[البقرة: 86]؛ فكانت الآخرة قريبة منهم وفي متناول أيديهم فتركوها وأخذوا عوضها الدنيا، ومثاله أيضا قول القائل:"بدلته بكذا" و"اشتريته بكذا"؛ فالثمن كان معه فدفعه وأخذ بدله ما اشتراه. وتأتي الباء كذلك للقسم؛ كما في قوله تعالى:﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[الواقعة: 75].

ومن المعاني المختلف فيها بين النحاة؛ معنى المجاوزة ك"عن" كما في قوله تعالى:﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1]، وقد أنكر البصريون هذا المعنى. ومنها معنى التبعيض ك"مِن"؛ كما في قوله تعالى:﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان: 6]، ومنها "انتهاء الغاية" ك"إلى"؛ مثل قوله تعالى:﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾[يوسف: 100]؛ أي: أحسن إليَّ، عند من يرى ذلك، ومنها كذلك "التجريد"، كقول الشاعر: لقيتُ به يوم العريكة فارسا ** على أدهم كالليل صبحّه الفجرُ

فكأن هذه الباء تجرد مصحوبها عن غير هذه الصفة، مثبتة له إياها كأنه منطبع ومنجبل عليها؛ أي ليست له صفة سوى الفروسية، وهذا المعنى يرجع في حقيقته إلى الإلصاق؛ فإن قولنا مثلا: "رأيت بخالد أسدا" معناه: حلّ به أسد وامتزج بشخصه حتى صرنا لا نكاد نفرق بينهما؛ فهما كيان واحد.[17]

وما قلناه عن معنى التجريد ينسحب على جميع المعاني الفرعية الأخرى التي ذكرها النحاة للباء؛ فإنها جميعها منحدرة من معنى رئيسي أصلي هو: الإلصاق والاختلاط، فهي إذن معان ثانوية متفرعة عن المعنى الأصلي للباء.

"على": تفيد الاستعلاء حقيقةً؛ كقوله تعالى:﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه: 5]، وقوله تعالى:﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[النساء: 34]؛ أي: يتولون أمرهم، وهذا فيه معنى الاستعلاء؛ فالعرب تقول: "قام عليه" أي: تولى أمره. وذكر لها النحاة معان أخرى؛ منها: المصاحبة كقوله تعالى:﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: 177]، وقوله تعالى:﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان: 8]؛ أي مع حبه للمال وحبهم للطعام، والحقيقة أن "على" هنا قريبة المعنى من "مع"، ولكن ليست بمعناها تماما؛ لأن قوله تعالى:﴿ عَلَى حُبِّهِ﴾ يفيد أنه مستعلٍ على حبه؛ أي أنه يترفع عن حب المال مخافة الله عز وجل وطلبا لرضوانه، كما أنه يتضمن معنى المشقة والمكابدة التي هي من معاني الاستعلاء؛ لأنه يؤتي المال وحب المال مستوطن في قلبه، وبالتالي فإن "على" في هذه الآية أقرب إلى معنى الاستعلاء منها إلى معنى المصاحبة. ومن معانيها المجاوزة ك "عن"؛ نحو قول الشاعر:

إذا رضيت عليّ بنو قشير ** لعمر الله أعجبني رضاها

ومن معانيها كذلك: التعليل كاللام، نحو قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [الحج: 37]؛ أي: لهدايته لكم. وتأتي بمعنى الاستدراك والإضراب؛ نحو قول الشاعر:

على أنّ قُرب الدار ليس بنافع ** إذا كان من تهواه ليس بذي ودِّ

وتأتي أيضا بمعنى "فوق" إذا دخلت عليها "مِن"؛ كقولنا: "سقط مِن على السطح".

"اللام": ومعناها الاختصاص، إما بالملكية؛ نحو قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[البقرة: 284] ، أو بشبه الملك؛ نحو قولنا: "الغلاف للكتاب"، "الباب للدار"؛ لأن الكتاب والدار لا يملكان. وتفيد كذلك معنى التمليك؛ نحو قولنا: "وهب الله لي مالا"، وشبه التمليك نحو قوله تعالى: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾[مريم: 5]؛ لأن الولي وهو الولد لا يُملك حقيقة. ويذكر النحاة لها معان فرعية أخرى؛ هي:

- الابتداء ك"مِن"؛ نحو قولنا: "سمعتُ له صراخا"؛ أي: منه.
- التبليغ؛ نحو قولنا: "قلت له"، "أذنت له"...الخ
- التعليل؛ نحو قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: 9].
- تأتي بمعنى "على"؛ نحو قوله تعالى:﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[الزلزلة: 5].
- الصيرورة وتُسمى لام العاقبة والمآل؛ نحو قوله تعالى:﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: 8]؛ فهم لم يلتقطوه لذلك، وإنما آل الأمر إلى ذلك بتقدير الحكيم العليم سبحانه وتعالى.

ومن خلال ما قدمناه من المعاني التي تفيدها اللام، نلاحظ أن جلها يرجع في حقيقته إلى المعنى الرئيسي والأصلي؛ ألا وهو الاختصاص.

"مِن": المعنى الأصلي والرئيسي ل "مِن" هو الابتداء عموما، سواء كان الحدث ممتدا أم لا، نحو:"أخذت الكتاب من المكتبة"؛ فالمكتبة هي مبتدأ الأخذ، وهو ليس حدثا ممتدا، ونحو قوله تعالى:﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾[الإسراء: 1]، ف"مِن" هنا لابتداء الغاية؛[18] لأن الحدث وهو الإسراء امتدّ من المسجد الحرام وانتهى بالمسجد الأقصى، فالمسجد الأقصى هو الغاية. ومنع سيبويه (ت: 180هـ) وبعض

البصريين مجيئها لابتداء غاية الزمان؛ فلا يُقال: "سافرت من يوم الجمعة"، وأجاز ذلك الكوفيون وجماعة من النحاة، وهو الذي نرجحه لاعتضاده بأدلة السماع؛ كقوله تعالى:﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾[التوبة: 108]، وقول أنس بن مالك – رضي الله عنه – :{ فمُطرنا من الجمعة إلى الجمعة}.[19] ومن معاني "مِن" الغاية وهي غير الابتداء؛ يقول سيبويه: «وتقول: "رأيته من ذلك الموضع"، فجعلته غاية رؤيتك، كما جعلته غايةً حيث أردت الابتداء والمنتهى»،[20] ومن معاني "مِن" التبعيض؛ نحو قوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[الحج: 11]، وهذا المعنى يرجع في حقيقته إلى الابتداء؛ يقول ابن يعيش (ت: 643هـ):« فإذا قلت: "أخذت من الدراهم درهما"، فإنك ابتدأت بالدرهم ولم تنته إلى آخر الدراهم؛ فالدرهم ابتداء الأخذ إلى أن لا يبقى منه شيء، ففي كل تبعيض معنى الابتداء»،[21] ومن معانيها: بيان الجنس؛ كقولنا مثلا: "عندي خاتم من ذهب"، ومن معانيها البدل كما في قوله تعالى:﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾[التوبة: 38]، وقوله تعالى:﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾[الأنبياء: 42]؛ أي: بدل الرحمن، وأنكر بعضهم مجيئها للبدل، وقالوا: التقدير في الآية الأولى: "بدلا منها"، فالمفيد للبدلية متعلقها المحذوف، أما هي فللابتداء. واحتكاما إلى القواعد الأصولية للنحو العربي؛ فإننا نرجح كونها تفيد معنى البدلية بذاتها، دون حاجة إلى تقدير؛ لأن ما لا يفتقر إلى تقدير أولى مما يفتقر إلى تقدير، والكلام إذا أمكن حمله على ظاهره فلا يجوز العدول عنه، وكلام الله عز وجل أولى أن يُحمل على ظاهره، إذا لم تكن هناك قرينة تصرفه عن هذا الظاهر.

2- حروف العطف: سنقتصر في دراستنا لحروف العطف على الأحرف الثلاثة: "الواو، والفاء، وثم"، والتي تُعتبر رئيسية في بابها، ولكونها تُعد الأكثر ورودا في القرآن الكريم:

"الواو": تفيد مطلق الجمع؛ فإن قلنا مثلا: "حضر زيد وعمرو"؛ فإنه يجوز أن يكون زيد حضر قبل عمرو، كما يجوز أن يكون عمرو حضر قبل زيد، ويجوز أنهما حضرا معا، يقول سيبويه (ت: 180هـ): « وليس في هذا دليل على أنه بدأ بشيء قبل شيء، ولا بشيء مع شيء؛ لأنه يجوز أن تقول: "مررت بزيد وعمرو" والمبدوء به في المرور عمرو، ويجوز أن يكون زيداً ، ويجوز أن يكون المرورُ وَقَعَ عليهما في حالةٍ واحدة؛ فالواوُ تَجمع هذه الأشياءَ على هذه المعاني».[22] فالواو إذن لمطلق الجمع ولا تفيد الترتيب، بل إنها قد تأتي للترتيب، وهذا لا يعني أنها تجمع بين متعاطفين بلا مناسبة ولا رابط منطقي بينهما، بل لا بد من علاقة منطقية تجمع بينهما لاسيما في عطف الجمل، فلا يصح أن يقال مثلا: "جاء زيد وفيل"، و"مررت خالد وصخرة".

كما أنه يُؤتى بالواو للدلالة على التأكيد والاهتمام، سواء كانت هذه الواو واو الحال أو غيرها، نحو قوله تعالى:﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾[الحجر: 4]، فالقياس يقتضي أن لا تتوسط الواو بين الصفة والموصوف؛ كما في قوله تعالى:﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾[الشعراء: 208]، وإنما توسطت الواو هنا لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف؛ كما يقال في الحال: " جاء زيد عليه ثوب "، و" جاء زيد وعليه ثوب "، والسياق يقتضي هذا التأكيد؛ أي تأكيد حصول العلم بأجل إهلاك القرية وكتابته في اللوح المحفوظ، وأن أي أمة من الأمم لها أجل معلوم مقدَّر في العلم الأزلي، ومكتوب في اللوح المحفوظ، لا تستأخر عنه ساعة ولا تستقدم،

بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾[الحجر: 5]، بخلاف آية الشعراء، فإن السياق الذي وردت فيه لا يقتضي إفادة هذا المعنى السالف ذكره، فلا حاجة فيه للواو المؤكِّدة؛ حيث يقول جل شأنه:﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾[الشعراء: 205- 209].

وقد يُؤتى بالواو لقصد الدلالة على المغايرة؛ وذلك إذا كان طرحها يؤدي إلى أن يكون الثاني مفسِّرا للأول؛ ومثال ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[البقرة: 49]، وقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[إبراهيم: 6]؛ فحذفُ الواو في الآية الأولى دل على أن التذبيح هو سوء العذاب، والواو في الآية الثانية جعلت التذبيح غير سوء العذاب فأفادت المغايرة وتعداد المحن؛ وسر هذا الاختلاف في التعبير أن الآية الأولى من كلامه سبحانه وتعالى لهم، فلم يعدد عليهم المحن تكريما في الخطاب؛[23] فقد جاءت الآية في سياق الامتنان على بني إسرائيل بالنعم التي خصهم بها سبحانه وتعالى من بين سائر الناس، قال تعالى:﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[البقرة: 47- 57]، وهذا السياق لا يناسبه تعداد المحن بخلاف سياق الآية الأخرى.

وقد يُؤتى بالواو للتنصيص على جمع حكمين؛ وذلك إذا كان طرحها يؤدي إلى الإضراب على الحكم الأول، كقول القائل مثلا: "قابلت زيدا وعمرا"، فإن هذه الواو دلت على أنه قابلهما جميعا، فإن طُرحت الواو دل ذلك على أنه قابل عمرا، وأضرب عن الحكم السابق؛ أي نفى مقابلته لزيد، وقد يُؤتى بالواو أيضا للدلالة على الاستمرار والتكثير، ويكون ذلك في الأفعال خاصة، نحو قولنا: "أخذ يدور ويدور ويدور"؛ أي يُكثر من ذلك وهو مستمر عليه.

"الفاء": تفيد الترتيب والتعقيب، فإذا قلنا مثلا: "جاء زيد فعمرو"؛ فالمعنى أن مجيء زيد قبل مجيء عمرو، وقد لا تفيد الترتيب، بل قد تكون لعطف مفصَّل على مجمل، وهو ما يسميه النحاة "الترتيب الذِّكري"، نحو قوله تعالى: ﴿

فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[النساء: 153]؛ فقوله تعالى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ تفصيل للسؤال المجمل الذي سأله بنو إسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام. وأما التعقيب؛ فمعناه أن المعطوف يكون بعد المعطوف عليه بغير مهلة، أو بعده بمدة قريبة؛ يقول سيبويه (ت: 180هـ): « والفاء: تضم الشيء إلى الشيء كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متسقاً بعضه في إثر بعض؛ وذلك قولك: "مررت بعمرٍ فزيدٍ فخالدٍ"، و"سقط المطر بمكان كذا وكذا فمكان كذا وكذا»،[24] والتعقيب أمر نسبي؛ حيث إن تعقيب كل شيء يكون بحسب هذا الشيء، يقول ابن هشام الأنصاري (ت: 761هـ): «أَلا ترى أَنه يُقَال: "تزوج فلَان فولد لَهُ"، إِذا لم يكن بَينهمَا إِلَّا مُدَّة الحمل وَإِن كَانَت متطاولة، وَ"دخلت البَصْرَة فبغداد"،إِذا لم تقم فِي البَصْرَة وَلَا بَين البلدين»،[25] ومن ذلك قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[الحج: 63]. وقد يُؤتى بالفاء للدلالة على السبب؛ كقوله تعالى:﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[القصص: 15]، وفي مقام السببية لا يصح الإتيان ب"ثم"؛ لأنها لا تفيد الدلالة على السبب، ولهذا يُؤتى بالفاء في هذا المقام وإن كان ثمة تراخ، والفاء العاطفة غالبا ما تفيد السبب، خصوصا في الجمل الفعلية؛ كقوله تعالى:﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[القصص: 15]، وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: 51- 55]، وقد تأتي لمجرد الترتيب دون أن تفيد السبب؛ كقوله تعالى:﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[الذاريات: 26- 27].

"ثُم": حرف عطف يفيد ثلاثة أمور: التشريك في الحكم والترتيب والتراخي، ومعنى التراخي: المهلة، وليس المقصود المهلة الزمنية فقط، بل عموم البعد والتباين، سواء كان ذلك في الزمان أم في الصفات أم في غيرها؛ ذلك أن هذه اللفظة تفيد البعد عموما؛ فإذا قلنا مثلا:"أقبل زيد ثم عمرو"، اقتضى ذلك ثلاثة أمور: اشتراك كل من زيد وعمرو في الحكم وهو الإقبال، والترتيب: أي أنّ زيدا أقبل قبل عمرو؛ فأقبل زيد أولا وبعده بمهلة أقبل عمرو. وتفيد أيضا معنى التراخي الرتبي، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[الزمر: 6]؛ فإنّ خلْق الزوج ليس بعد خلقهم من نفس واحدة، فمعلوم أن الآية الأولى وهي خلق الناس من نفس واحدة قد جعلها الله عز وجل عادة مستمرة في ذرية آدم – عليه السلام– بخلاف الآية الثانية؛ فإنها لم تجر بها العادة، فلم تُخلق أنثى من قصيرى رجل غير حواء– عليها السلام–، ولأجل ذلك عُطفت على الآية الأولى ب"ثم"، للدلالة على مباينتها لها فضلا وتراخيها عنها في كونها أجلب لعجب السامع؛ فقد أفادت "ثم" هنا تراخيا في الحال والمنزلة، لا تراخيا في الوجود والزمن.[26] ومن ذلك قول الشاعر:

إنّ من ساد ثم ساد أبوه ** ثم قد ساد قبل ذلك جدُّه

فسيادة الأب والجد ليست متأخرة في الزمن عن سيادة الابن، وإنما تراخت عنها في الحال والمنزلة؛ فسيادتهما أفضل في المكانة والمنزلة من سيادة الابن.

وتأتي "ثم" كذلك للتوكيد، نحو قوله تعالى:﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[الانفطار: 17- 18]؛ حيث دخلت "ثم" على التوكيد اللفظي فزادت في المبالغة فيه. ويتبادر من هذه الآية معنى آخر ل "ثم"، وهو الاستبعاد والتعجيز؛ أي لا يمكنك يا محمد أنت وغيرك من البشر أن تدركوا كنه يوم الدين مهما فعلتم، إلا ما نخبركم به عن أوصافه مما هو غائب عنكم.

3- حروف النفي: ما يهمنا في بحثنا هذا من حروف النفي أربعة أحرف؛ وهي: "إنْ، ما، لن، لا".

"ما": تنفي الجمل الاسمية والفعلية؛ فإذا دخلت على الجملة الاسمية أعملها الحجازيون والتهاميون والنجديون عمل "ليس" بشروطها المعروفة، نحو قوله تعالى:﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف: 31]، وقوله تعالى:﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾[المجادلة: 2]. وتنفي الحال عند الإطلاق، فإذا قُيدت كانت بحسب القيد؛ كقولنا مثلا :"ما زيد مشغولا" أي: "الآن"، وقولنا: " ما زيد مشغولا غدا"، وقوله تعالى:﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 167]؛ أي: في الاستقبال. وقد تكون للمضي كقولنا: "ما زيد استعار كتابي بل عمرو"، وقد تكون للحقيقة، غير مقيدة بزمن؛ نحو قوله تعالى:﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾، وهي آكد من "ليس"؛ لأنها تقع جوابا للقسم، كقولنا: "والله ما هو بمنطلق" بخلاف ليس، وهي أيضا أوسع استعمالا منها، ف"ليس" مختصة بنفي الجمل الاسمية، وأما "ما" فتنفي الجمل الاسمية والفعلية. وإذا نفت الفعل المضارع خلُص هذا الفعل عند الجمهور للحال؛ نحو قوله تعالى:﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾[هود: 91]، وهي تنفي كذلك الفعل الماضي، وقد تكون لنفي الماضي البعيد؛ كقوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[الأنبياء: 16]، وتفيد الاستقبال إذا جاءت في جواب الشرط؛ كقوله تعالى:﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: 145]، وهي آكد في النفي من "لم"؛ لأنها تُستعمل في نفي القسم، يقول سيبويه (ت: 180هـ):« وإذا قال: "لقد فعل"، فإن نفيه "ما فعل"؛ لأنه كأنه قال: "والله لقد فعل"، فقال: "والله ما فعل"».[27]

"إنْ": تدخل على الجملة الاسمية فتنفي الحال؛ كقوله تعالى:﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾[الملك: 20]، وتدخل على الجملة الفعلية؛ نحو قوله تعالى:﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾[التوبة: 107]، وقد تكون للمضي؛ نحو قوله تعالى في عيسى- عليه الصلاة والسلام -:﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: 59]، كما تفيد كذلك الاستمرار؛ نحو قوله تعالى:﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]، وإذا وليها الفعل المضارع فإنها غالبا ما تكون لنفي الحال؛ نحو قوله تعالى:﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: 148]، وقد تأتي لغير الحال؛ نحو قوله تعالى:﴿ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[فاطر: 40]؛ فهي هنا للاستمرار. وإذا وليها الفعل الماضي فإنها تكون في الغالب لنفي الماضي القريب من الحال؛ كقوله تعالى:﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾[النساء: 62].

"لن": حرف نفي ونصب واستقبال يدخل على الفعل المضارع فينفيه نفيا مؤكَّدا ويخلصه للاستقبال؛ كقوله تعالى:﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[البقرة: 95]، وقد تأتي للدعاء مثل "لا"؛ كقول الشاعر:

لن تزولوا كذلكم ثم لازل ** تُ لكم خالد خلود الجبالِ

وقد تأتي للقسم، ولكنّ ذلك نادر جدا، كقول أبي طالب:

والله لن يصلوا إليكم بجمعهم ** حتى أُوسَّد في التراب دفينا

"لا": ونقصد بها الداخلة على الفعل المضارع دون سواها، وهي في هذه الحالة تؤدي عدة معان؛ فقد تكون للحال كقوله تعالى:﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾[الصافات: 92]، وقد تفيد الاستقبال؛ نحو قوله تعالى:﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[البقرة: 174]، وقد تأتي للاستمرار؛ نحو قوله تعالى:﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة: 255]، كما تأتي جوابا للقسم؛ نحو قوله تعالى:﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: 65].[28]

خاتمة: خلاصة ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات في هذا البحث ما يلي:

1- لاحظنا أن للحرف معنى أصلي ورئيسي، ومعان أخرى ثانوية تتفرع عن المعنى الرئيسي وترجع في حقيقتها إليه.

2- يلعب السياق دورا محوريا في تحديد معنى الحرف في القرآن الكريم.

3- قد تتناوب الحروف فيما بينها لتأدية بعض المعاني المشتركة إذا اقتضى السياق ذلك.

4- انقسم النحاة تجاه حروف المعاني فريقين؛ فريق مضيِّق يرى أن ليس للحرف إلا معنى أصلي واحد، وفريق موسِّع يرى أن الحرف يمكن له أن يؤدي عدة معان إذا اقتضى السياق ذلك.

5- بعد الدراسة التطبيقية التي قمنا بها في القرآن الكريم نرجح رأي الفريق الثاني؛ فالحرف يمكن له أن يؤدي عدة معان إذا استدعى السياق ذلك، وإن كانت هذه المعاني ترجع في حقيقتها إلى معنى أصلي واحد.

6- نوصي الباحثين المختصين في الدراسات اللغوية أن يولوا عناية خاصة بموضوع حروف المعاني؛ لما له من أثر خطير في توجيه معاني النصوص، لاسيما النص القرآني.

الهوامش والإحالات:

[1] – المرادي أبو محمد بدر الدين، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة –الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1413هـ- 1992، ص: 19.

[2] – ابن منظور محمد بن كرم، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هشام الشاذلي، دار المعارف: القاهرة، 1401- 1981، ط: 1، ج: 2، ص: 838، 839.

[3] – ينظر: الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح: نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1426- 2005، ط: 8، ص: 799.

[4] – أبو القاسم الزجاجي عبد الرحمان بن إسحاق، الإيضاح في علل النحو، تح: مازن المبارك، دار النفائس: بيروت، 1406- 1986، ط: 5، ص: 54.

[5] – الفاكهي جمال الدين بن عبد الله، شرح الحدود النحوية، تح: صالح العائد، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، (د، ط- د، ت)، ص: 271.

[6] – عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف: القاهرة، 1394- 1974، (د، ط)، ص: 68.

[7] – مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، دار ابن الجوزي، القاهرة، 1429- 2009، ط: 1، ص: 610.

[8] – أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، ص: 54.

[9] – ينظر: عبد الله حسن عبد الله، حروف المعاني بين الأداء اللغوي والوظيفة النحوية، مخطوط رسالة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة جنوب إفريقيا، نوفمبر 2010، ص: 24.

[10] – ينظر: المرجع نفسه، ص: 29.

[11] – أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري، أسرار العربية،دار الأرقم بن أبي الأرقم: بيروت، ط: 1، 1420- 1999، ص: 40.

[12] – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تح: عبد الخالق عضيمة،عالم الكتب: بيروت، (د، ط- د، ت)، ج: 4، ص: 139.

[13] – ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار الفكر: عمان- الأردن، ط: 1، 1420- 2000، ج: 3، ص: 17.

[14] – ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو: 3/ 18.

[15] – سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان، كتاب سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي: القاهرة، ط: 3، 1408هـ- 1988م، ج: 4، ص: 217.

[16] – ينظر: الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو، تفسير الكشاف، دار مصطفى البابي الحلبي، 1367هـ- 1947، ج: 1، ص: 388.

[17] – ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو: 3/ 27.

[18] – المرجع نفسه: 3/ 75.

[19] – مالك بن أنس الأصبحي، الموطأ، تح: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية – أبو ظبي- الإمارات، ط: 1، 1425هـ- 2005م، ج: 2، ص: 266.

[20] – سيبويه ،كتاب سيبويه: 4/ 225.

[21] – ابن يعيش أبو البقاء موفق الدين الموصلي، شرح المفصل، دار الكتب العلمية: بيروت، ط: 1، 1422هـ- 2001م، ج: 4، ص: 461.

[22] – سيبويه ،كتاب سيبويه: 1/ 438.

[23] – الخطيب الإسكافي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني، درة التنزيل وغرة التأويل، تح: محمد مصطفى آيدين، منشورات جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط: 1، 1422هـ- 2002م، ج: 1، ص: 230.

[24] – سيبويه ،كتاب سيبويه: 4/ 217.

[25] – ابن هشام عبد الله بن يوسف الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر: دمشق، ط: 6، 1405هـ- 1985، ص: 214.

[26]– ينظر: الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو، تفسير الكشاف: 4/ 113- 114.

[27] – سيبويه ،كتاب سيبويه: 3/ 117.

[28] – ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو: 4/ 206.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1- الاستراباذي رضي الدين ، شرح كافية ابن الحاجب، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، ط: 2، 1416هـ – 1996.

2- الأصبحي مالك بن أنس ، الموطأ، تح: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية – أبو ظبي- الإمارات، ط: 1، 1425هـ- 2005م.

3- الأنباري أبو البركات عبد الرحمن بن محمد ، أسرار العربية،دار الأرقم بن أبي الأرقم: بيروت، ط: 1، 1420- 1999.

4- حسن عباس ، النحو الوافي، دار المعارف: القاهرة، 1394- 1974، (د، ط).

5- الخطيب الإسكافي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني، درة التنزيل وغرة التأويل، تح: محمد مصطفى آيدين، منشورات جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط: 1، 1422هـ- 2002م.

6- الزجاجي أبو القاسم عبد الرحمان بن إسحاق، الإيضاح في علل النحو، تح: مازن المبارك، دار النفائس: بيروت، 1406- 1986.

7- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو، تفسير الكشاف، دار مصطفى البابي الحلبي، 1367هـ- 1947.

8- السامرائي فاضل صالح ، معاني النحو، دار الفكر: عمان- الأردن، ط: 1، 1420- 2000.

9- سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان، كتاب سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي: القاهرة، ط: 3، 1408هـ- 1988م.

10- عبد الله حسن عبد الله، حروف المعاني بين الأداء اللغوي والوظيفة النحوية، مخطوط رسالة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة جنوب إفريقيا، نوفمبر 2010.

11- الغلاييني مصطفى، جامع الدروس العربية، دار ابن الجوزي، القاهرة، 1429- 2009، ط: 1.

12- الفاكهي جمال الدين بن عبد الله، شرح الحدود النحوية، تح: صالح العائد، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، (د، ط- د، ت).

13- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح: نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1426- 2005، ط: 8.

14- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد ، المقتضب، تح: عبد الخالق عضيمة،عالم الكتب: بيروت، (د، ط- د، ت).

15- المرادي أبو محمد بدر الدين، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1413هـ- 1992

16- ابن منظور محمد بن كرم، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هشام الشاذلي، دار المعارف: القاهرة، 1401- 1981، ط: 1.

17- ابن هشام عبد الله بن يوسف الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر: دمشق، ط: 6، 1405هـ- 1985.

18- ابن يعيش أبو البقاء موفق الدين الموصلي، شرح المفصل، دار الكتب العلمية: بيروت، ط: 1، 1422هـ- 2001م.